نحو أدب فلسطيني جديد

علاء حليحل*

هل سأصبح يوماً أديباً حقيقياً؟

I

لسوء حظي الشديد، كانت طفولتي سعيدة. ليس لديّ ذكريات دراماتيكية، ولا قصص محزنة تختزل الوجع الإنساني كي أرويه للعالم وأبتزّ تضامنه (وأبيعه نسخاً كثيرة من الروايات). أقول من سوء حظي لأن الطفولة التعيسة لأي كاتب هي كنز لا يفنى، أو على الأقل طفولة "مثيرة"، ملأى بالمشوقات والأطايب السردية. وهكذا لا أذكر أنني كتبت أي نص أو قصة عن طفولتي لم يكونا مغمّسين بجمال المكان الذي كبرتُ فيه وتشكّلت.

أمّا حسن الحظ المرافق لهذه "المشكلة"، فهو أنني كبرت وتشكّلت في قرية جليلية وادعة (الجش)، هي الوحيدة التي لم تُدمّر في النكبة في منطقتها، وإنما استوعبت لاجئين من بَرعم، وإقرت، وقدّيتا قرية جدّي التي امّحت تماماً عن الوجود. هذا الخليط الكبير من الريفيين، المقيمين واللاجئين، أفرز جواً جميلاً ونادراً، بحيث إنني اليوم إذا ما سُئلت على أي شاكلة أريد لفلسطين أن تكون، فأجيب بلا تردد: مثل الجش ـ لهذه الدرجة ـ وقد يكون موقع هذه القرية الصغيرة أمراً حاسماً في طباع سكانها، ذلك بأنها في أقصى شمال فلسطين، ورميش اللبنانية على مرمى حجر منها، وهي منقطعة وحيدة بين الكيبوتسات والموشافات اليهودية التي أقيمت من حولها على أراضي سعسع ودلاّتا والرأس الأحمر وغيرها.

قرية رعوية تذكّر بالريف الأوروبي، طبيعة خضراء غنية وشاسعة، هضاب وتلال وسهول وينابيع رقراقة تفيض في الربيع، مياهها عذبة ونظيفة وتُشرب هنيئاً مريئاً. هذه هي الطفولة بالنسبة إليّ، وداعة وطمأنينة وجنّة صغيرة كانت لنا، نحن الأطفال ثم الفتية، مرتعاً للّعب والبحث عن أسرار الطبيعة في المزروعات والأشجار، وبعد

* كاتب مسرحي وروائي وصحافي من مواليد الجش / الجليل الأعلى ١٩٧٤. صدر له أربعة كتب كان آخرها "كارلا بروني، عشيقتي السرية" ٢٠١٢.

ذلك في أجسادنا التي بدأت تصحو رويداً رويداً على نداء الربيع المخدّر. لا يمكنني أن أفكر، للحظة، في أي كتابة أدبية لا تعود دائماً إلى الجذور والبدايات، هناك، في تلك الضيعة النادرة في المشهد الريفي الفلسطيني بعد النكبة. المشروع الأدبي الذي أحلم به، والذي ما زلت في بداياته الأولى، يبدأ من هناك وأعتقد أنه سينتهي هناك. عندما أنهي سنتي الخامسة والسبعين سأكون قد أنهيت الرواية بأل التعريف التي أريد كتابتها. سأنتظر ٣٦ عاماً أُخرى كي أجرؤ على كتابتها، فهي بحاجة إلى عودة جسدية، إلى الطفولة التي شكّلتني. سأشتري بيتاً صغيراً أقضي فيه تقاعدي في قريتي الجميلة، وسأكتب الملحمة التي ستكون خالية من أي حروب أو نزاعات. هذه مهمة مستحيلة، أعرف، ولذلك سأؤجلها إلى سن الخامسة والسبعين، فإذا كتبتها فسيُشار إليّ بالبنان، وإذا لم أفعل فلن يعتب أحد على مُسنّ ضعيف لم يعد يقوى على تشغيل "اللابتوب".

II

أنا لا أعرف ما هو الالتزام. أقصى ما يمكن أن نقول عنه هو الكتابة من أجل فلسطين وقضاياها الحارقة. وعليه، فهل قصة مراهَقة حميمية هي كتابة ملتزمة؟ فهي تحكي قضية فلسطيني أو فلسطينية، وهي قصة حارقة بالتأكيد. لكنني لا أقول فقط إن كلمة التزام عصيّة على التعريف ومراوغة وسطحية إلى أبعد حد، بل أقول أيضاً أنني أمقتها، وهي مسؤولة في نظري عن كثير من الجرائم التي اقترفناها بحقّ أنفسنا في المسرح والسينما والموسيقى والأدب والفن التشكيلي (وعن بعض النجاحات الكبيرة الأُخرى). الالتزام هو خصي للمبدع. أنا أحمل مشروعاً فنياً وجمالياً، وليس مشروعاً سياسياً أو "وطنياً". على الكاتب ألاّ يكون وطنياً، هذا هراء تامّ. وإذا اقتضت الحاجة فعليه شتم فلسطين وأبنائها وعَلَمها ورموزها وعاصمتها المستقبلية. هذه هي الضمانة الوحيدة لكتابة نصوص وطنية حقيقية. مفارقة؟ تناقض؟.. طبعاً!

أنا لست كاتباً فلسطينياً حين أكتب. لا أعترف بفلسطين ولا بإسرائيل ولا بالصراع العربي ـ الصهيوني ولا بأي أمر يمتّ إلى النكبة بصلة ـ حين أكتب. حين أكتب أنا كاتب فقط. شخص مأزوم يتعرّق أمام "الكيبورد" ويحاول ألاّ يفكر بالطعام كل عشر دقائق. لا قومية لي ولا انتماء ولا أهل ينتظرون نصّي كي يقرؤوا أنفسهم فيه. أعرف أن هذا محبط جداً لمَن يرى فينا جيلاً فلسطينياً "منتصباً" يعرف كيف يكتب الأدب الجيد خدمة للقضية. أكبر خدمة يمكن أن نقدّمها للقضية هي أن نطلق سراحها حين نكتب. خذي أيتها القضية المتعبة عشرين درهماً واذهبي لشرب كأس بيرة ريثما أنتهي، وإياك ثم إياك أن يضحك عليك صهيوني آخر. هذه المرة سأضربك علَى مؤخرتك. إذا استوفينا هذا الشرط وحررنا الكاتب الفلسطيني (والمبدع عامة) من احتضان القضية له ومن ركوبه لها (بكل المعاني)، فقد يحدث مستقبلاً أن نسعى في اتجاه اجتراح أدب يسمّونه الجديد الحقيقي.

الفن الملتزم، الأدب الملتزم، المسرح الملتزم، هذه ترّهات اخترعتها مجموعة من ذوي النيات الحسنة الذين يحاولون أن

يعيشوا طوال حياتهم في الحضن "الوطني" الدافئ. الأدب هو فعل تحريضي وصدامي وإلاّ فسيتحول إلى "مانشيتات" تافهة يستطيع كل محترف حزبي أن يخطّها وهو جالس في مكتبه المكيّف ينتج الثورات الشعبية. من هنا فإن الأدب الرافض للمعلّبات السياسية والاجتماعية يجب أن يرفض بالضرورة الحرَفيات السابقة في الكتابة التي سبقته. هَذا ليس دلعاً أو ترفاً "ثقافوياً" من أجل القول في المقاهي المهترئة إنني تمردتُ على إميل حبيبي أو غسان كنفاني أو حنا أبو حنا مثلاً. طز في هكذا تمرد! ما أبحث عنه دائماً هو النظرة النقدية المستمرة إلى ما أنتجه الذين سبقونا، وما ننتجه نحن، ومحاولة إيجاد المفردات الملائمة، لي أولاً، ككاتب ـ فقط ككاتب مخلص لنصّه الحرفي بعمقه وتجلياته الجمالية والفكرية. أمّا الالتزام فهو قاتلٌ هنا ـ يخصيك ـ يجعلك في معظم الحالات ردّاحاً جديداً يخشى التغريد خارج التلم.

أعرف أن وضعنا مختلف. وهذا الإدراك يجعلني أعيش في تسوية مع الواقع الفلسطيني. وأقولها بصراحة: أنا أجبن من أن أذبح كل البقرات المقدسة ـ الآن على الأقل.

أعتقد أننا جميعاً أجبن من أن نصل في نقدنا وتفكيكنا للرموز إلى هذا الحد. نحن كتّاب، شجعان على الورق فقط. هذا هو الامتياز الذي منحتنا إياه الطبيعة ويجب أن نستغله حتى النهاية. وأحاول أن أتفادى مأزق هويتي ـ وهو مأزق كبير حقاً. فالاسترخاء والنوم في كونك ضحية هو أمر قاتل آخر. لا أريد أن أكون ضحية. لا أريد مقارنة النكبة بـ "الهولوكوست". لا أريد إدمان السلبية والاتكالية وبكائيات النكبة. أريد الخروج من هذا الدور. وها أنا أعلن لك يا تل أبيب وبأعلى صوتي: لو لم تغتالي يافا لكانت يافا اليوم أجمل وأرقى وأبهى منك، وكانت ستفتح ذراعيها للبحر وقد عطّرت نهديْها للبحارة، وكانوا سيأتون سائحين من بولندا وروسيا كي يستلقوا على شواطئها الخلابة. علينا أن نكتب بهذا النفس لا بنفس ضحايا النكبة. هناك مراكز أبحاث وأكاديميون يكتبون عن النكبة ويخلّدونها. على الأدب الفلسطيني اليوم أن يعيد الثقة والحياة إلى الفلسطيني، ولا يمكنك أن تفعل ذلك بينما القضية اللعينة تجلس على كرسي خلفك تراقب ما تكتب على الشاشة. لهذا يصير فعل التخلص من عبء فلسطينيتي وأنا أكتب، طريقَ العودة إلى فلسطين الجميلة.

III

الكتّاب الرائعون هم مَن يحشرونك في الزاوية، فتتعرّق وتتخربط وتحاول أن تسأل نفسك بصمت مريب مخجل: هل سأصبح يوماً مثلهم؟ لا يهمني كم كتاب كتبوا أو كم جائزة أخذوا أو كم نسخة باعوا. هؤلاء الكتّاب أكبر من أن يُقاسوا بذلك، مع أنهم جميعاً كتبوا كثيراً وباعوا كثيراً وحصدوا جوائز كثيرة. أول تلك الكتب "كليلة ودمنة" الذي سبق "ألف ليلة وليلة" في تحفيز المخيلة والجوع إلى السرد. إنه الجوع إلى السرد الذي يبقيني حياً بكل معنى الكلمة. أراه في توسلات ابنتي شذا كل ليلة من أجل قصة ولو صغيرة (قصة "الصرصور والنملة"!). أتوجد حياة خارج الجوع إلى السرد؟ كيف هي، وما لون الذروة فيها؟ هل هناك ذُرى بلا نهايات متقنة؟ وكيف يمكن أن يتحدث

المرء إلى جاره من دون أن يتخيله في مشهد روائي أو سينمائي؟ هل يمكن الإنصات إلى محادثة في "تاكسي سرفيس" أو في القطار من دون التفكير في كيفية كتابتها في القصة القادمة؟

أكثر مَن أثر فيّ في الكتابة هم الناس من حولي: أبي وأمي اللذان يسردان بامتياز؛ خالاتي كوميديات بارعات؛ أعمامي شخصيات دراماتيكية مبالغ بها؛ أصدقائي جلبوا لي آباءهم وخالاتهم وأعمامهم على طبق من فضة. الناس كلهم من حولي يعملون من أجلي: جميع مَن ذكرتهم، وأضيف إليهم الجيران والمعارف والزملاء في العمل، وأيضاً: بورخيس وماركيز ومندوثا وساراماغو وسرفانتس ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وتشيخوف ودوستويوفسكي وتولستوي وكونراد وبوكوفسكي ورؤوف مسعد وإميل حبيبي وراشد حسين وطه محمد علي ومحمود شقير وشكسبير ومحمد شكري... ولا شك في أنني نسيت جبرا إبراهيم جبرا وعبد الرحمن منيف (وخصوصاً في روايتهما المشتركة "عالم بلا خرائط") ورواية واحدة لحنا مينا ("الياطر")، وغيرهم كثير.

كل رواية أحببتها صارت عندي مرجعاً وبيتاً. أنا منفتح على منابع الريح كافة. لا لغة مفضلة عندي ولا تيار ولا مدرسة. أحب أعماق البشر حين تتقشر بقسوة وحبٍّ في النصوص، أحبّ من يدوّخني ويسحرني حتى في رواية بوليسية يمكن أن تُعتبر تافهة أو ليست "على المقام" (مَن يأخذ بثأر رواياتك الساحرة يا مايكل مارشال؟). كم كنت سعيداً حين اكتشفت روايات الإثارة والتشويق والبوليسية. إنها أعظم مدرسة لتدريس حرفية الكتابة بتقنياتها البارعة: غزل الحبكة المتقن، بناء الشخصيات الدقيق، ذكاء التحكم في المعلومات، المفاجآت المتكررة التي لو أُتقنت لكانت مثل الساحرة الجميلة في قصة سندريللا التي تزيد من سرعة أنفاس ابنتي شذا في كل ليلة من جديد.

أنا مدمن على البحث والتأثر والسرقة الذكية. كلنا لصوص نار، لكن بعضنا أذكى من الآخر، وبعضنا أغبىً من الآخر. لا نصّ بدئياً ابتدع نفسه بنفسه. ولذلك علينا أن نكون منفتحين على الجهات الأربع وإلاّ ضاعت علينا فرصة التأثر بهذا أو ذاك. الأدب مثل بالون صغير يتقاذفه الأدباء في سرمدية سيزيفية كي لا يقع على الأرض. ستكون محظوظاً بقدر هائل، لو أنك مددتَ يدك يوماً وساهمت بضربة خفيفة كي لا يقع البالون على الأرض فتتوقف القصة. سيتم تسجيلك في سجلّ الأدباء العظام، وإذا لم يسعفك الحظ في هذه الضربة الخفيفة فيكفيك متعة أنك تابعت هذا البالون، ومن دون أن يدري أحد حاولتَ أن تنفخ عليه ذات يوم من شبّاك بيتك، من غير أن ينتبه أحد إلى مجهودك الهائل. ■